

٢- التناقض

في كتاب النثر الفني

للأستاذ محمد أحمد الخمرأوى

إن الأمثلة التي ضربناها لتناقض صاحب الكتاب لا تمثل كل مظاهر فساد التفكير انفاثي في الكتاب ، وليست هي كل أمثلة التناقض فيه على الرغم من أن أكثر الكتاب تراجم ونصوص في كثير منها طول ، وهذه وتلك تقى بطبيعتها صاحب الكتاب أن يظهر عيوب تفكيره اللهم إلا إذا تطوع بالتعليق فن أمثلة وقوعه في التناقض حين يأخذ في التعليق وهو بترجم رجال القرن الرابع ما وقع في كلامه على ابن شهيد ؛ فقد روى لابن شهيد رأياً يناقض صريح رأى زكي مبارك في الأسلوب ، وأقره على ذلك الرأي فهدم بذلك رأى نفسه وتناقض من حيث لا يدري . روى له في صفحة ٥١ من الجزء الثاني قوله : « إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام ، فإذا جاور النسب النسب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك حسنت المناظر وطابت الخبايا » إلى آخر ما روى له . ثم علق عليه بقوله : « وهذا كلام جيد ، وأجوده ما نص فيه على أن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلام ؛ فإذا جاور النسب النسب ومازج القريب القريب طابت الألفة وحسنت الصحبة » وليس لتعليقه هذا معنى إلا أنه يقر للأسلوب بما أنكره مراراً من قبل . فإن تناسب الحروف من صميم الأسلوب أو هو الأسلوب مرفقاً ، لأنه يتعلق باللفظ والصيغة دون المعنى . فهذا نص لا يستطيع صاحب الكتاب تحجلاً ولا تأويلًا له ، يضاف إلى ما ناقض به نفسه سابقاً في أمر الأسلوب ، وينقض عرضاً كل ما كتب عن أسلوب القرآن ، لأن القرآن الكريم هو النثل الأعلى لهذه الظاهرة البلاغية التي نبه إليها ابن شهيد ، وأقرها واستجلدها زكي مبارك في غفلة من ذاكرته وهواه . على أن هناك نصوصاً أخرى له فبر التي سبق ذكرها ينقض بها مذهب نفسه في

الأسلوب وإنكار مكافئه قد تأتى لبعضها مناسبة فنذكره . ومما جاء فيه صاحب الكتاب بقول مختلف استقامة السنة الأعراب . فهو يقول في صفحة ٥٥ من الجزء الأول : « وأرى من المضحك أن يظن أن العرب لم ينتهوا إلى وقوع اللحن في لغتهم إلا بعد الإسلام ، وأن اتصال العرب بالأعاجم هو الذي رماهم باللحن ، كأن لغة العرب بدع من اللغات لا يلحقها تغير ولا تبدل ، وذلك رأى واضح البطلان » وهو هنا يخلط بين اللحن وبين التغير الطبيعي الذي يطرأ على اللغة بالتدريج في الدهر الطويل والذي نشأت وتنشأ عنه اللهجات ، والذي لا يمكن أن يمد من اللحن بحال . لكن لا علينا ، فنحن هنا لا ننظر في صحة نتائجه ، ولكن في اتساق تفكيره ؛ إذ النتائج قد يرجع بطلانها إلى فساد المقدمات مع اتساق التفكير أو إلى فساد التفكير مع صحة المقدمات ، كما قد يرجع طبعاً إلى فسادها معاً . فلتكن مقدمات صاحب الكتاب ما تكون أفهو متسق التفكير ؟

لقد أشار إلى هذه النقطة في موضعين آخرين على الأقل . أشار إليها عرضاً في صفحة ٥٨ من الجزء الأول حين أراد توكيد تأثر نثر الصدر الأول بالمدنيات الأجنبية . قال : « ولا عبرة بما عرف عن فريق من العرب من الحرص على تربية أبنائهم تربية عربية صرفة ، فإن هذا لم يكن يراد به صرف الشباب العربي عن فهم المدنيات الأجنبية ، وإنما كان يراد به حمايته من المعجمة التي كانت تميب الأرستقراطية العربية ، وتجعل صاحبها موضع السخرية بين معاصريه » وهو بهذا يشير طبعاً إلى ما هو معروف عن العصر الأموي من إرسال بعض الأمراء والخلفاء أبناءهم إلى البادية لينشأوا فيها على استقامة اللسان والسلامة من اللحن . لكن اقرأ الآن له من صفحة ٢١ من الجزء الثاني : « فإننا نرتاب في سلامة الأعراب من اللحن والغلط ، ونرى أنهم قد يلحنون كما يلحن المولدون » إذ ذاك فقيم كان إرسال الأبناء إلى البادية حماية لهم من المعجمة التي كانت تميب الأرستقراطية العربية ؟ لقد كان ذلك عهداً إن صح رأى صاحب الكتاب في أن الأعراب قد يلحنون كما يلحن المولدون . ولو وقف قول صاحب الكتاب عند هذا لكان

الخلف خفياً بين طرفي أقواله الثلاثة وبين أوسطها ، ولجاز أن يلتبس له شيء من عذر ، لكنه - وهذا موضع العجب - علق على قوله الثالث في الهامش بما يأتي :

« ويجب أن نذكر أن الشعر الجاهلي والاموي كان يجري على قواعد من النحر لم تأخذ صيغة نهائية في التحديد والترتيب ، كما اتفق ذلك في العصر العباسي ؛ فأعلاط الجاهليين والامويين ليست أعلاطاً بالقياس إلى لغتهم هم ، وإنما هي أعلاط بالإضافة إلى اللغة التي حدد قواعد النحويون » . إذن فلم يذهبهم باللحن حين لا لحن ما داموا كانوا ينطقون طبق لغتهم هم ، وافقت نحو العصر العباسي أو خالفته ؟ إن هذا الرجل لا يدري أنه بقوله هذا قد نفى تطرق اللحن والمعجمة إلى الامويين في الوقت الذي ينسب فيه الجاهليين إلى اللحن في صلب كتابه ، ولا يدري أنه يجعله الشعر الجاهلي والاموي يجري على نحو رجراج كالذي يدعى ويتوهم بمصطدم بالسبب الذي من أجله زعم أن نشأة علم النحر قديمة في الجاهلية ، ألا هو جرى القرآن « على غلط واحد في أوضاعه النحوية لا يختلف في ذلك إلا باختلاف روايته من القبائل المختلفة » . إذ كيف يمكن أن يجري القرآن على نحو واحد ولا يجري الشعر ؟ وإذا كان القرآن لا يختلف نحوه إلا باختلاف القبائل فلم لا يكون الشعر أيضاً كذلك ؟ إن الرجل يعترف من حيث لا يدري باطراد النحر في لغة كل قبيلة مادام اختلافه من اختلاف القبائل ، ويعترف بأن اللغة في جماتها تجري على نحو واحد ما دامت لا تختلف إلا في المواطن اليسيرة التي تختلف فيها الرواية في القرآن حسب اختلاف القبائل عند هذا الرجل ، وإذن فلا معنى لترجرج نحو اللغة في العصر الاموي وانعقاده في العصر العباسي إلا أن هذا الرجل أراد أن يأتي بجديد يخالف به علماء العربية فوقع في خلف بمد خلف في النقطة الواحدة وفي العبارة الواحدة ، سنة الله في الباطل وأهله

على أنه لا حد فيما يظهر لباطل هذا الرجل ، ولا نهاية لتخبطه ؛ فقد تعرض للقرآن مرة أخرى حين ترجم لابن فارس وحاول نقد آرائه ، لكنه ترقى في هذه المرة فاقترح أن يفرد للقرآن نحو خاص إى والله اواقرأ له إن شئت من هامش صفحة ٤٢ من الجزء الثاني : (والقرآن يجب أن يفرد له نحو

خاص ، وكذلك الأدب الجاهلي والاموي ، ولغات العالم كله تعترف بما يسمى « النحر التاريخي » ونحن في حاجة إلى ذلك النحر لتوجيه بعض ما يبدو شاذاً من تعابير القرآن) ! أفكان علماء العربية يفتظرون صاحب الفهر الفنى حتى يحجى بذلك النحر الخاص لتوجيه « بعض ما يبدو شاذاً من تعابير القرآن » ؟ وفيهم كانت علوم العربية كلها إن لم تكن لغتهم القرآن وتبيان ما يبدو لهذا الرجل شذوذاً في القرآن ؟ وشذوذاً عما ذا ؟ عن نحو لغة قريش وهو معترف بأن القرآن يجري على غلط واحد في أوضاعه النحوية إلا إذا كان الراوى من قبيلة غير قريش ؟ أم عن لغات القبائل الأخرى وهو يعترف أن لغة القرآن إنما هي لغة قريش ؟ فما الحاجة إلى نحو جديد إذا كان القرآن يجري - وكان الأدب الجاهلي والاموي يجري - إما على نحو لغة قريش أو على نحو لغة قبيلة أخرى في المواطن القليلة التي تختلف فيها القبائل عن لغة قريش ؟ أمن أجل وجود نحو تاريخي للغات العالم ، يريد أن يوجد نحواً تاريخياً للقرآن ؟ إنه إذن لا يفهم ما النحر التاريخي ولا لماذا وجد في لغات العالم . إن لغات العالم الحاضرة تغيرت بالتدريج عما كانت عليه ولو من قرون قليلة ، فأنه شاكسبير مثلاً غير لغة ما كولي ووثر ، ولا أحسب لغة بوراويراسين عين لغة هوجو وأناطول فرانس . والنحو التاريخي للإنجليزية أو الفرنسية يبين الاختلاف الذي طرأ فيما بين ذلك على الإنجليزية أو الفرنسية ، فأى شبه بين عربية القرآن والأدب الجاهلي والاموي وبين الإنجليزية أو الفرنسية من هذه الناحية ؟ لو كان هذا الرجل يكتب عن فهم لا عن تقليد بيناى ، لأدرك أن النحر التاريخي للغة القرآن هو نحو نشأة العدنانية عن أصلها في ماضى العربية السحيق ، وهذا لو أمكن الوصول إليه لا يفسر ما يبدو لهذا الرجل شذوذاً في القرآن ، لأنه لا شذوذ هناك إلا إذا كان نحو الجاهلية الأولى هو الأصل وإذن يكون أكثر نحو العربية المعروف شذوذاً ، كما إن أكثر نحو الإنجليزية أو الفرنسية الحاضرة شذوذ بالإضافة إلى نحوهما في الماضي السحيق . فصاحب الفهر الفنى يكتب من غير علم ولا ترو ولا تفكير سديد ، أو هو رجل راكب في البحث هواه (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) محمد أحمد النعماني